مواطنون ... لا رعايا

تأليف الشيخ خالد محمد خالد

الأستاذ علي العماري

هذا كتاب يجيء في أوانه، وبقدر ما أخفق المؤلف في كتابه (من هنا نبدأ) بقدر ما أصاب من نجاح في كتابه هذا، ومقياس الإخفاق والنجاح عندي هو سلامة الفكرة، وأصالة الرأي، والقرب من الصواب، والبعد من المغالطة والتهتر والإضطراب

ولعل كتاب (مواطنون لا رعايا) من أجدر الكتب بأن يطلع عليه كل من يستطيع أن يقرأ في مصر، بل في الشرق، فهو جدير بأن يطالعه الزعماء وقادة الرأي في البلد إن كان عند هؤلاء رغبة في مطالعة كتاب شعبي ألفه رجل ليس من كبار المؤلفين، ولكن قوله من أحسن وأجل وأصدق ما يجب أن يقال، وهو جدير بأن يطالعه شباب مصر المثقفون لأنه يعبر عما يجول في النفوس من آلام وآمال، وهو جدير بأن يطالعه رجل الشارع لأنه يبصره بمواضع قدميه، ويقول الكلمة التي لا يستطيع أن يقولها وإن كانت تحوم على لسانه، وتستقر في نفسه

بدأ المؤلف كتابه في الحديث عن الاستعمار التركي، وما أصاب مصر من بلاياه ورزاياه، وما خلف فيها من آثار سيئة في حياتها الاجتماعية والاقتصادية والسياسية، ثم قال — وهنا بيت القصيد — : (ونحن ننبش قبر الاستعمار التركي لنكتشف الأوتاد المطمورة تحت ترابه، والتي لا تزال تصلنا بها سلاسل وأغلال. ومالم ننتظف روحنا المسيطر من رواسب الماضي فسنظل دائماً نعيش في ذلك الماضي برجعيته وفساده واستبداده، وسيظل الشعب جاثيا تحت الأثقال التي أنقضت ظهره، وهدمت قواه. إننا — الدولة والشعب — لا نزال نعيش في ذلك الماضي السحيق، فالعجز السياسي، والرجعية الاقتصادية، والانهيار الخلقي، والشعب المستسلم، والحكم الأتقراطي، والفساد الإداري، والحريات المصادرة، واستغلال الدين. كل هذه الخطايا تقترف اليوم بنفس الهمة العالية التي كانت تجترح بها في تلك القرون. إن الاستعمار التركي قد اختفى حكامه، وبقيت تقاليده وشعاره وأحكامه)

ثم تحدث عن الاستعمار الإنجليزي، مبينا مثالبه وأخطاره، وشارحا دخول الإنجليز مصر، والمظاهر المختلفة التي ظهر فيها الاستعمار، وأطال جدا في هذه الناحية، وانتهى إلى أن شيئاً مما تفعله الحكومة لن يخرج الانجليز من مصر، فالمفاوضات لا ثمرة

يا مقلة شائهة التصوير ...
يا كعبة ملعونة النذور ...
يا جثة منتنة البخور ...
لسوف يوماً تبصرين نوري
نور الفتى المحتقر الفقير
فتسجدين سجدة المقهور
خاشعة ... هنا على حصيري
باسطة كفيك كالضرير
صارخة من وطأة الضمير
فمربدي راقصة وثوري
وأحتقري واستهزئي وجوري
وأعرق ما شئت في الفجور
واستغرق في وهمك النضير
فوق فراش الشهوة الوثير
وزهر القطيفة المنثور ...
وتحت ضوء الرقص البلوري
ورنة الأرغن والطنبور
ووعدة الأكؤس في الثغور
وجيشان الرغبة المثير ...
فغداً تحين ساعة النشور ويعرف اللب من القشور

محمد مفتاح الفيتوري

لها ، والمنظمات الدولية خداع ونفاق وأداة طيعة فى يد القوة ، وإنما يخرج الإنجليز من مصر شئ واحد ، هو القوة ، ولا شئ غير القوة

ولتحقيق هذه الغاية يتعرض المؤلف للأوضاع القائمة فى مصر ، وينقدها نقداً عنيفا صريحا لا مواربة فيه ولا التواء ، ثم يوضح الطريق للاصلاح المنشود (واقد حاولنا جهد هذا البحث المقتصد الموجز ، أن ننفض عن أمتنا طغاوة البغى ، ورهج الانكسار ، ونعاونها فى فض قيودها وأغلالها ، وسنرى خلال سيرنا مع هذه السطور ما يجعلنا نرتد عاجزين عن الاقتناع بأن لنا حقوقا ترعى وحرمات تصان) فينقد الحياة النيابية ، ويرسم الخطة لإصلاحها ، وينقد الصحافة التى تجعل (الأخلاق التجارية تسيطر عليها أكثر مما يسيطر عليها الواجب الأدبى) وينقد الأحزاب ومناهجها وسلوكها فى حكم الأمة (فالحزب الذى لا يستأثر بالحكم يستأثر بكل شئ معه . لقد آمنت بأن الأحزاب لا تحترم الشعب أبدا . أن الحزب — فيما يبدو — لا يريد نائبا يشرفه بعقله ومواهبه ، ولكنه يريد — بوليصة تأمين — تؤمن خزينته من الإعواز ، ونفوذه من الخذلان . وبعد : فإن مجالسنا النيابية حتى اليوم لم تمثل الأمة بقدر ما مثلت الحزب . والبرلمان الذى يأتى ثمرة هذه الأوضاع الفاسدة — لا يحكم الحكومة بل تحكمه) وينقد الحكومات فى معالجتها كل حركة بقانون ، ويرى أن السلس الذى يصيب الحكومات فى وضع القوانين هو أخطر ما تصاب به أمة ، وأن محاولة زجر الشعب بقانون إنما هو كمحاولة إطفاء النار بقاذفات اللهب (ولسنا بذلك ندعو إلى شغب أو فتنة ، بل إلى سكينة وسلام ، وإنما دعاة الفتنة والثورة ؛ بحق هم أولئك الذين يتحدون طبائع الأشياء ويحاربونها بقانون) ثم يصف حال الشعب فى عبارات صريحة جريئة (إن بلادنا محرومة من أن تفكر لأنها محرومة من أن تقرأ ، ومحرومة من أن تعبر وتقول ، وهى ممنوعة من ذلك كله حرصاً على سلامة الدولة ؛ وسلامة الهيئة الاجتماعية . مطلوب من الجماهير أن تبسط يدها إلى اللقمة المغمة ، أو الحشرة الدسمة ، ثم تدسها فى فمها ، وتستحليها كما تفعل بأى شئ حلو لذيذ . ماذا طرأ علينا من تغيير وتطوير ؟ كنا بالأمس (عبيد الباب العالى) ونحن اليوم عبيد الحزب الحاكم .. أى حزب . كنا بالأمس ضحايا النهب والرشوة والاستغلال ، ونحن اليوم كذلك أيضا . كنا بالأمس مسلوبى الحرية والإرادة . . . وليس لنا دستور ، ونحن اليوم مسلوبو الحرية والإرادة والكرامة ومعنا دستور . كنا بالأمس أمة مستعمرة باكراه ، ونحن اليوم أمة مستعمرة بمعاهدة) ويدعو فى قوة وحماس إلى تنمية غرائز الغضب والنفور ، وحب الذات فى الشعب ، وتركها تؤتى ثمارها فى تقدم الأمة وتحريرها ، ويرى أن غريزة حب الذات من أنبل وأنفع السلائق الإنسانية

ولو أن المؤلف أضاف إلى هذه المثبطات لتقدم الأمة ، والعوامل فى تأخرها ، لو أنه أضاف الإذاعة المصرية التى قتلت فى الأمة عزتها ، والصحف الماجنة التى جنت على أخلاقنا أشنع الجنايات وأقتلها ، لأتم بذلك الدائرة الحقيرة التى تضغط الشعب وتحكم قيوده

ولم أرد بهذا العرض السريع أن أوصل إلى القارئ كل ما فى الكتاب من حقائق ، وما يشتمل عليه من توجيهات للحكومات والشعوب ، وإنما أردت — فقط — أن أشير إلى روح الكتاب ونهجه

على أنى لا أخلى المؤلف من اللوم ، فإن عنده عقدة نفسية من رجال الدين ، فهو يهجم عليهم لغير مناسبة ، ويتجنى عليهم ولا جناية ، وليس أدل على ذلك من ذكره لهم عند حديثه على غريزة الغضب وغريزة حب الذات ، فهو يحاول أن يحملهم وزراً مع أنهم لا يخالفونه فى الرأى ، وهو عند — النظر الفاحص — لم يزد على ما يقولونه شيئاً ، وأنا لا أريد أن أخلى رجال الدين من التبعات ، ولا من اللوم ، ولكنى أحب أن نلوم عندما نجد موضعاً للوم حتى يكون لومنا مفيداً . كما أن المؤلف لم يوفق فى كلامه على التقاليد وبخاصة حين قال : (والحقيقة التى تغرب عن بالنا هى أن الأديان جميعها لم تأت إلا لتدمدم على التقاليد وتقتلعها ثم تذروها مع الريح . .) هكذا بعمم الكلام .. وهو خطأ ذريع

إن المؤلف أسرف فى إرخاء العنان للغرائز التى ذكرها ، ولكنه دون أن يشعر رجع إلى الاعتدال ، فهو مثلا ينقل عن

بعض الكتاب مؤيداً ما يقول الكاتب ، وفى هذه الكلمات التى أشاد بها المؤلف هذه الفقرات من فريزة الغضب (ولكننا إذا أرخينا الحبل لهذا الحافز العاطفى الذى لا غنى عنه كانت النتيجة مدمرة ، فإن البغضاء الزمنة أو إمساك الحقد فى القلب يمزق صاحبه) وهذا هو الاعتدال الذى ينادى به رجال الدين ورجال التربية فى كل الغرائز ولا شئ غير هذا ، فإذا كان المؤلف مؤمناً بهذا الاعتدال فهو – إذن – لم يأت بجديد ، وإذا كان يريد أن تترك الغرائز تجرى غاية حصرها فقد أخطأ الطريق

والمؤلف ينكب الجادة عن قصد أو عن غير قصد حين يدعو إلى التحالف مع روسيا ، وحين يشيد بعبارات جميلة بروسيا وعواقفها مع مصر ، ولو التزم جانب السداد والنظر الفاحص ، لرفض أن يدعو إلى التحالف مع روسيا كما يدعو إلى رفضه مع بريطانيا وأمريكا

بريطانيا وأمريكا دولتان استعماريتان ، تضمران للشرق كل شر . هذا صحيح . ولكن روسيا – أيضاً – كذلك ، ولا أدرى كيف نسى المؤلف أو تناسى معاونة روسيا على قيام إسرائيل ؟ !

إن روسيا تحارب الاستعمار فى كل مظاهره – كما يقول المؤلف – ولكنها لا ترى بأساً من أن تساعد على طرد شعب من دياره ليحل محله شعب آخر ! الحق يا أستاذ أن – الكفر كله ملة واحدة – كما يجرى على الألسن

وأعود فأقول إن المؤلف كفر بكتابه (مواطنون لا رعايا) عن كتابه (من هنا نبدأ) والحسنة كفاء السيئة

ع . ع

كتب جديدة :

حافظ وشوقى

تأليف الأستاذ حسن كامل الصيرفى – ٧٦ صفحة من الحجم الكبير – الطبعة الثانية بالمعادى عام ١٩٤٩

للأستاذ محمد عبد المنعم خفاجى

الأستاذ الصيرفى شاعر مجدد ، من المدرسة الحديثة فى الشعر المصرى المعاصر . وديوانه : « الألحان الضائعة » و « الشروق » ، وألحانه الجميلة وتأملاته التى تنشر فى الصحف والمجلات ، من الطراز الفنى العالى ، التى تنم عن شاعرية موهوبة أو نفس شاعرة ، وملكات مطبوعة . . ورمزيته فى ترانيمه الموسيقية الآسرة واضحة كل الوضوح ، كما يقول الناقد الحر مصطفى السحرتى فى كتابه « الشعر المعاصر على ضوء النقد الحديث » .

ونشاط الصيرفى الأدبى نشاط مبكر جدا ، فمنذ الخمسة عشر عاما كان يشرف على تحرير بعض المجلات الأدبية ، ويكتب البحوث فى الأدب والنقد ، وينظم القصائد الجميلة العالية

وآخر ثمراته الأدبية كتابه « حافظ وشوقى » ، الذى يدل على عقلية مؤلفه الخصبة ، وملكاته القوية فى النقد ، ومنهجه الواضح فى الموازنة والتحليل ، والدراسة الأدبية الصحيحة

وصعوبة الكتابة عن شوقى وحافظ من حيث الموازنة المنهجية بينهما ، لا يجهلها أحد ، ولكن الصيرفى نهض بهذا العبء فى قوة واستقامة غرض ودقة تحليل وإصابة هدف

والشاعر لا يستطيع أن ينقد شعره إلا شاعر مثله ، يفهم منهج الشعر ومذاهبه وأدواته ، ويتذوق أسلوبه وعناصره . . . سئل البحترى عن سلم وأبى نواس أيهما أشعر ؟ فقال أبو نواس . فقيل له إن أبا العباس ثعلباً (الراوية اللغوى الأديب النحوى المتوفى ٢٩١ هـ) لا يوافقك على هذا ؛ فقال : ليس هذا من شأن ثعلب وذويه المتعاطين لعلم الشعر دون عمله .

لذلك كان نقد الصيرفى الشاعر لشوقى وحافظ الشاعرين : وموازناته الأدبية بينهما ، من الدقة والإصابة بمكان بعيد مما تحس به حين يتحدث عن ديباجة الشاعرين وموسيقاهما ، أو حين يحلل شعرهما السياسى والتاريخى ، أو شعرهما فى الطبيعة والمرأة ، وفى الرثاء ، وفى بعض المواقف التاريخية والوطنية : كحادثة دنشواى ، ووداع كرومر ، ووفاة مصطفى كامل ، وإعلان الدستور العثمانى وخلع عبد الحميد ، وحريق ميت غمر ، وزلزال مسينا الذى صوره حافظ ، وزلزال طوكيو الذى صوره شوقى ، ومحاولة اغتيال سعد

وحين يعرض الصيرفى الناقد لفن الشاعرين نلاحظ قوة

وروعة لا مثيل لهما ، رغم الإيجاز الشديد في حديثه عن ذلك

وهذه الموازنات بين الشاعرين تسير وفق أحدث المناهج الأدبية في النقد ؛ فهي ليست نمطاً من الموازنات القديمة ، التي تنظر إلى الألفاظ والقواعد ، وتحليل بيت ، وتعداد محاسن وعيوب محدودة ؛ وإنما هي موازنات تنظر إلى البواعث النفسية التي أثرت في فن كل من الشاعرين وإنتاجهما

إن هذا الكتاب القيم لجدير بأن يضفي على شخصية الصيرفي الشاعر شخصية الناقد الحر الطليق

محمد عبد المنعم خفاجي

مدرس بكلية اللغة العربية

تعليق على « الدخان في الشعر »

كتب الأستاذ عبد القادر رشيد الناصري في العدد ٩٢٥ من الرسالة الغراء مقالة بعنوان « الدخان في الشعر » استعرض فيها بعض القصائد في الدخان لبعض الشعراء العراقيين

وأول ما تناول كاتب المقال قصيدة « الغادات قاهرات » للمرحوم الرصافي المنشورة في ديوانه الأول المطبوع سنة ١٩١٠م بالطبعة الأهلية ببيروت

ولقد استوقفتنا بعض العبارات التي دونها الأستاذ بيراعه على صفحات الرسالة . وإظهاراً للحقيقة وددنا التعليق والرد على ما جاء ، بهذه الفقرات التالية لكي يقف على الحقيقة . الفقرة الأولى : —

علق الأستاذ على هذه الأبيات من أنها خير دليل على كذب الرصافي

إن كانت السكارى شرب خمرتهم
شربت لكن دخاناً من سيكاراتي
إني لأمتص جزءاً من في ورق
إذ تشربون لهيباً ملء كاسات

إن الرصافي نشر هذه القصيدة بديوانه المنشور سنة ١٩١٠م وربما نظمها قبل هذا التاريخ ببضع سنوات ، وبهذه الفترة الزمنية في حياته كان صادق اللهجة في إنكاره الخمرة بعيداً عما يتصوره الأديب ، حيث أنه لم يتحرر من العامل الديني آنذاك تحررا كليا ، إذ كان يقتصر على التدخين وحده ، ولا يرى في الكأس إلا سما زعافاً

هذا من جهة ، ومن جهة أخرى فإنه شاعر ، والشاعر له إحساسات وعواطف يحس فيها بقرارة نفسه ، فيتناول يراعته ليضعها في قوالب موسيقية متناسقة ، ويلبسها حلة زاهية . ولو علم أن ما كتبه مخالف لما هو عليه ، فرائده تدوين ما انبثق من حسه وما يتصوره من شعور

ولو فرضنا جدلا أن الرصافي يحتسي الخمر حقا في تلك الحقبة الزمنية فقصيدته جاء بها عن طريق النصح والارشاد حتى يتعظ القارئ ويقتنع من قول ناصحه

ولقد سلك الرصافي مسلكا تحليليا لإبانة ضررها بصورة يشعر المطالع لها أن ناظمها ممن يجب الاقتداء بأثره فيتخذ بنصحه فهذا لا يعتبر كذبا

الفقرة الثانية : —

استشهد الأديب بهذه العبارة للأستاذ الكبير « الزيات بك » (همه من الحياة شرب العرق ، ولعب الورق ، واستباحة الجمال)

إنا لا نزعم أن الرصافي لم يحتس الخمرة قط ولا ذاق طعمها ، بل يعود نظم هذه القصيدة في وقت كان أبعد ما يكون فيه عن الخمر

أما عبارة الأستاذ الزيات فكانت صريحة لا غبار عليها — وهذا ما نتفق به مع الأديب الناصري — إذ قدم العراق بين فترة سنة ١٩٣٠ م إلى سنة ١٩٣٣ والرصافي بحد ذاته لا ينكر ذلك بل ينطق بصراحته التي عهدناها فيه . وإليك قصيدته التي نظمها بعد تلك القصيدة أي (الغادات قاهرات)